التربية الأخلاقية والدينية في فلسفة أبي حامد الغزالي.
Moral and Religious Education in the Philosophy of Abu Hamid Al-Ghazali

د.عبد الغاني عليوة
جامعة محمد لمين دباغين- سطيف-2.

ملخص:
يُعد حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، أحد رواد الفكر التربوي في عصره، على الرغم من كون فلسفته لم تنحصر في موضوع واحد بدليل غزارة إنتاجه، وتنوع مؤلفاته، فيعتبر كتيبه **"رسالة أيها الولد"** أعظم ما كتبه الغزالي في التربية، ومقالنا هذا عبارة عن بحث وجيز في تعاليم ومبادئ التربية الأخلاقية والدينية لدى الغزالي، والذي أولى أهمية عظمى لهذين العنصرين في تكوين النشء.
الكلمات المفتاحية: التربية، الأخلاق، الدين، النشء، المعلم، المتعلم.

Summary
After Hojjat al-Islam Abi Hamid Al-ghazali, is considered one of the pioneers of educational thought in his time, the fact that his philosophy was not confined to one topic (subject), as evidenced by the abundance of his production, and the diversity of his writings, in his book (Message Boy) is the greatest of what Al-Ghazali wrote on education, and our article is brief research the teachings and principles of moral and religious education in Al-Ghazali, who attached great importance to these two elements in the formation of the young people.
Keywords: Education, morals, religion, young people, teacher, learner.

مقدمة:
يعتبر موضوع الأخلاق من المباحث الأساسية التي عنى بدراستها الفلاسفة والمفكرين منذ القدم، فمختلف الدراسات التي تناولت هذا الموضوع كان مغزاها متمثل في محاولة فهم واستخلاص مميزات الأفعال والسلوكيات التي تطبع الحياة الاجتماعية والفردية، فالأبعاد الأساسية المستهدفة من البحث الأخلاقي، تتمثل في معرفة دوافع الأفعال ونتائجها، ولكون الخير والشر يشكلان عنصرين نطاق موضوع الأخلاق، فإن النظر إلى سلوكيات وأفعال الأفراد من هذه الزاوية يكون بمدى تفاعلهم مع تعاليم المجتمع.

في الفكر اليوناني برز موضوع الأخلاق بصورة واسعة من ناحية البحث فيه داخل الحياة الاجتماعية والفردية، فكان أفلاطون وأرسطو من المهتمين بالقضايا الأخلاقية والواقع الذي تعبر عنه، فاعتبرا أساسها تحقيق الفضائل التي تمثل جوهر قيام الحياة الاجتماعية وسموها، فالمضمون الذي كانت تدعو إليه هو الوصول إلى السعادة التي ترمز إلى الغاية المنشودة.

أما في الفكر الفلسفي الإسلامي، يرجع الفضل الكبير في الاهتمام بمبحث الأخلاق إلى كل من ابن مسكويه والغزالي.

فالمجتمعات العربية في الجاهلية كان ينقصها الوعي، وعند مجيء الإسلام انتشر الوعي الديني والأخلاقي بصفة كثيفة، أين بدأ التهذيب النفسي والسلوكي يتوسع بشكل كبير، وهو الذور الذي أداه الرسول الكريم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1]، فالأخلاق الإسلامية جاءت من أجل تأدية وظيفة الإصلاح الشامل على المستوى الفردي والجماعي، وبعث روح جديدة تقوم على عماد الدين (القرآن والسنة النبوية)، ويقتضي من الإصلاح وجود تربية دينية، وأخلاقية قويمة في أساسها وجوهرها؛ لكونها تعتبر مقياساً للانتماء العقائدي والحضاري للأمة.

والغزالي بدوره أبدى اهتماماً جليلاً بالتربية الدينية والأخلاقية في قاموسه التربوي، والتي تبنى على قاعدتي القرآن والسنة الشريفة، لتكوين مجتمعاً صالحاً فاضلاً محيطاً بالتعبير الحقيقي عن الشخصية الإسلامية، فأمر تغيير أحوال المجتمع وأفراده اقتضى وجود معالم جديدة تقوم بها التربية في المستوى السلوكي والفعلي، ولأجل تأسيس الحياة الاجتماعية بالأخلاق والدين، وقد ذكر الغزالي في مقدمة كتابه (الأدب في الدين)" أن أكمل الأخلاق وأعلاها، وأحسن الأفعال وأبهاها، هو الأدب في الدين، وما يقتدي المؤمن من فعل رب العالمين، وأخلاق النبيين والمرسلين، وقد أدبنا الله تعالى في القرآن بما أرانا فيه البيان، وأدبنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في السنة"[2]، من هذا المنطلق ينبغي إثارة تساؤلات حول دور وأهمية الدين والأخلاق في تربية النشء، فما موضع التربية الأخلاقية والدينية في الفكر التربوي لبي حامد الغزالي؟

عرض:

أولاً: مفهوم الأخلاق عند الغزالي.

يرى الغزالي أن المهام الرئيسية التي يقوم بها المربون هي محاولة تثبيت الأخلاق الحسنة في نفسية المتربي أو النشء، وإزالة السلوك السيئ، فالنفس كما هو معروف في طبيعتها مهيأة لقبول الخير والشر، فهي ذات استعداد للتلقي بما يلقن إليها من الفعال المختلفة، فالفعل الحسن محبب، والفعل القبيح مذموم.

يُعرف الغزالي الأخلاق في كتابه (ميزان العمل) على النحو التالي" وأما حسن الخُلُق فبأن يزيل جميع العادات السيئة، التي عرّف الشرع تفاصيلها، ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات، وأن يتعود العادات الحسنة، ويشتاق إليها، فيؤثرها ويتنعم بها"[1]، ويظهر من هذا التعريف أن الغزالي يرى في توظيف حسن الخلق مسلك قويم في جوهره من حيث التعود به من أجل نبذ الطبائع السيئة من الأفعال الخبيثة التي تسيء إلى حقيقة الإنسان، ويُعرّف الغزالي الخُلق بقوله" فالخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة، المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خُلُقاً حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سُميت الهيئة التي هي المصدر خُلُقًا سيّئاً"[2].

يؤكد الغزالي في هذا التعريف بُعداً عميقاً تقوم عليه الأخلاق، والمتمثل في الجانب الداخلي المشكّل للفعل الأخلاقي، أي الحالة التي تكون عليها النفسُ في باطنها، وأمّا السلوك الخارجي

---

[1]ـ **أبو حامد الغزالي،** إحياء علوم الدين، ج3، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص 172.

[2]ـ **أبو حامد الغزالي،** الأدب في الدين، تحقيق: عبد الله أبو دينة، دار الشرق، بيروت، ط3، 1981م، ص 52.

[1]ـ **أبو حامد الغزالي،** ميزان العمل، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، مصر، (د.ط)، 1965م، ص 255.

[2]ـ **أبو حامد الغزالي،** إحياء علوم الدين، المصدر السابق، ص 177.

فهو نتيجة الفعل وليس مصدره، وهذه المحاولة التي قام بها الغزالي هي كشف عن المضمون الإسلامي للأخلاق ومفاهيمها التي تحمل طابع النيّة التي هي الفكرة الرئيسية التي تطبع بها الأخلاق دون تجاهل في الوقت نفسه للصورة الخارجية والشرعية للفعل الأخلاقي. وتتجلى التربية الأخلاقية في العناية المستفيضة للصورة العقلية والنفسية التي يتكون وفقها النشء من زاوية الاهتمام المستمر الذي يكشف المظاهر والخصائص العميقة.

نجد الغزالي ذا حرص كبير على العناية بحياة الطفل وتمييزه على تأديبه، غذ كلما كانت الأرضية قابلة للتلقي كلما ازداد احتمال بلوغ الهدف ارتفاعاً" وهكذا فإن المناهج التربوية الناجحة لا ينبغي أن تكون انطلاقتها سطحية، إذ أن الطفل المجهول النفسية تُجهل معه طرق التّأديب، ولهذا يكون البدء بدراسة الباطن قبل الظاهر لسلوك الطفل، وهذا إدراك رائع وفهم عميق لأكثر الوسائل التربوية نجاعةً وفائدةً"[1]، يظهر من هنا أن التوغل في فهم وإدراك الحياة النفسية لدى الأطفال أمر ضروري لا يمكن التغاضي عنه، بل يُعدّ أهم جانب يُعتني به في جانب التربية الأخلاقية والاجتماعية والدينية في جميع صورها، فصحة التهذيب الأخلاقي عند الطفل يتطلب المداومة والاعتياد على الأفعال الجميلة الحسنة التي تنبع من تطابق وانسجام طبيعته الداخلية والخارجية حتى يكون أوفى أسلوب فعّال يُعرّف به سلوك الطفل وميوله، إذ يُقرُّ الغزالي في هذا الشأن قائلاً" أن الاعتدال في الأخلاق هو صحبة النفس، والميل عن الاعتدال سقمٌ ومرضٌ فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحّة له، والميل عن الاعتدال مرضٌ فيه"[2].

من خلال هذه المفاهيم التي عرضها علينا الغزالي حول معنى الأخلاق، يمكن التساؤل عن التربية الأخلاقية للطفل، هل تهذيب الطفل أخلاقياً ونفسياً منذ الصبا كفيل بأن يجعله يُصدر أفعالاً محمودة عقلاً وشرعاً؟، وهل مفعول التهذيب يكون بالتوجيه؟، يرى الغزالي أنّ أبلغ وسيلة في تكوين الطفل يكون بترويضه على التخلق بالأفعال الفاضلة المحمودة، ويتشكل ذلك بصورة أوفى عندما تُفهم وسائل معالجة فطرته من أجل تقويم سلوكه وطبيعته، وينبغي في هذه الحالة الحرص على الطفل منذ بداية تمييزه، وبروز عقله، وتظهر الخاصية الرئيسية في ترسيخ الأخلاق بالدّور الفعّال الذي يقوم به التوجيه" لكن الغزالي عندما أتى إلى تقرير هذه المعالم لم يعط رأياً محدداً في الفطرة البشرية: فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شيء، وتقبل كل صورة، وتارة يراها أميل إلى الخير منها إلى الشرّ"[3]، يدلُّ على ذلك قوله" وإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل، وتميل إليه وإلى القبائح، فكيف تستلذ الحق لو ردّت إليه مدّة، والتزمت المواظبة عليه، بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشّنيعة خارج عن الطبع، يضاهي الميل إلى أكل الطين"[4].

نفهم من قول الغزالي أن النفس توجه حسب الظروف، فالإنسان لا يشتهي في كل لحظة أن يكون خيّراً أو شريرًا، وإنّما يظهر ميله إلى الشرّ حين يوجد موجب الشّر، فالنفس يُنظر إليها

---

[1]– **لخضر لكحل**، تربية الطفل عند الغزالي ومقارنتها بالتربية عند روسو، رسالة ماجستير في فرع علوم التربية، السنة الجامعية 1989- 1990م، ص 98.

[2]– **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين، المصدر نفسه، ص 186.

[3]– **زكي مبارك**، الأخلاق عند الغزالي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1968م، ص 132.

[4]– **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين، المصدر السابق، ص 184.

أنّها تُخلقُ ناقصة قابلة للكمال، وبالتّالي فهي بحاجة ماسّة إلى أن تُكمّلُ بالتربية والأخلاق، وأن تستعين بالعلم كطريق لتطهيرها من الرذائل ورسخ فيها الفعال الفاضلة.

فالأخلاق التي ينشأ عليها الأطفال، تكون في مضمونها ذات صلة وثيقة مع تكيّفهم النفسي والعقلي، حتى تُرسخُ السلوكيات الحسنة في قلوبهم، ومن أجل ذلك تتحصل فيهم قابلية مهمة لانكشاف الميل لديهم من الأوصاف الخُلُقية المكتسبة وأن تصير مطبوعة فيهم.

ثانيًا- كيفية التربية الأخلاقية.

يقوم جوهر الدين على حُسن الخُلُق، فالأخلاق تكشف العوامل المُيسّرة للوصول إلى حقيقة بناء الإنسان على أساس يستشعر بوجوده، ويُظهر تميّزه على باقي المخلوقات الأخرى، ويكون ذلك بتكامل الوظائف الداخلية المشكلة من النفس والقلب، والعقل وانسجامها مع الوظائف الخارجية المشكلة من الجوارح والأعضاء الظاهرة، وأفضل إنسان ينال أشرف مرتبة في هذه الحياة، إنما بحسن الخلق، وقد قال الله تعالى لنبيّه وحبيبه، مُظهراً نعمته عليه في الآية: 4، من سورة القلم؛ ﴿وإنّك لعلى خُلُق عظيم﴾.

الغزالي حين يتحدث عن أخلاق الأنبياء، يُقرّ بأنهم ليسوا بحاجة إلى تأديب ولا إلى تعليم، فإن ذلك يُعتبر إلهام ربّانيٌ في حصول كمال وقوة فطرتهم، فأخلاقهم وتعاليمهم التي يبشّرُون بها الناس ليست حاصلة بالاكتساب، وإنما تستمد أصولها من الجود الإلهي، ولذلك فهم يبلّغون ما يوحى إليهم قصد توجيه البشرية إلى الصلاح والخير، وتنزيه سلوكياتهم وأفعالهم، وتجعلهم يستجيبون إلى الشّرع، ويحتكمون إلى قواعده، ويتمسكون بأوامره، ويصبح العقل خاضعاً للشرع ومطيعاً له، وعند ذلك تصبح صورة تحقق أوصاف الخلق التي تدعو إلى الاعتدال مسلكًا كبيرًا في التوجيه الاجتماعي للأفراد.

يُعطي الغزالي مسلكاً ثانياً في حصول التربية الأخلاقية بالاكتساب المعتمدة على المجاهدة والرياضة، يقول الغزالي في كتاب (الإحياء)" من أراد أن يحصل لنفسه خُلُق التواضع، وقد غلب عليه الكبر، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدّة مديدة، وهو فيها مجاهد نفسه، ومتكلف إلى أن يصير ذلك خُلُقًا له وطبعًا، فيتيسر عليه"[1]، فالغزالي عندما يُظهر الاهتمام البارز برياضة النفس، ومواظبتها أسلوب فيّاض في اشتياق الأفعال الجميلة ونبذ الأفعال القبيحة، وفي هذا المجال يصبح أمر اشتغال النفس ما يحقق لها الرضا، من حُسن الخُلُق، ويبعث فيها الشعور بالارتياح، وهذا ما يجعل المرء راغباً ومريدًا لتحصيل مكارم الأخلاق وترسيخ الدينية منها في النفس بأسلوب الاعتياد الذي يؤثر فيها، وبهذا يتضح طريق صقل وتهذيب أوضاع طبيعة النفس، حتى تكون تحت حكم النظر المعتدل في استواء الأفعال التي تصدر عنها.

دون شك فإن القوام الرئيسي للتربية الأخلاقية موجه نحو تكوين النشء منذ الصغر حتى يصلحون في حياة الكبر، وبموجب ذلك يقتضي وجود طريق مستنير لتبليغ هذه التربية يقول الغزالي: "اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفسية ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش، ومائل لكل ما يمال إليه، فإن عُوّد الخير وعلمه، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإنّ عُوّد الشر وأهمل إهمال البهائم، شقى وهلك، وكان

---

[1]- **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين، المصدر السابق، ص 183.

الوزر في رقبة القيّم عليه"[1]، وقد حثنا الله تعالى بالقول في الآية: 6 من سورة التحريم﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾.

يهدف الغزالي هنا إلى بيان ضرورة تكوين الصبيان تكويناً حافلاً بالآداب والأخلاق الحميدة، وتربيتهم على السلوك الحسن، والخُلق القويم، وتوجيههم بأوامر تُشرق نور عقولهم، وتطهر لهم الطريق الصحيح لحياتهم، وتغليب رؤيتهم الأخروية على الدنيوية. والاعتدال هو أساس الأخلاق للحفاظ على صفاء قلوب الصبيان وتبشير كمال العقل في درجة البلوغ، وللحرص على هذه المبادئ لابد أن يسترشد الصبيان بالقرآن، ويحتكمون إلى السنة وسلوك الصالحين حتى تنغرس الفضيلة في نفوسهم، وتتقوم طبيعتهم، وتتحسن حياتهم، وبهذا يمكن أن تستبعد منهم بذور الفساد، ومنه تنكشف هذه المعالم في مدى تأثير أوامر ودور الوالدين في تحسين أوضاع التعامل الذي يفيء إليه الصبيان في نطاق حُسن الخلق، ويشارك في هذه المهمة المعلمون بقسط كبير في إرشاد الصبيان وتدريبهم على الأفعال الخيّرة، مما ينعكس ذلك بصورة مؤكدة في الاستجابة إلى طاعة الأكابر واحترام الناس، ويحصل ذلك ببيان لهم صور الاجتهاد والآداب، فالتكوين الأخلاقي عند الصبيان يكون في الصغر، لأنهم في هذه المرحلة تظهر عليهم علامات القبول والاستعداد التام للتلقي، ولذلك يكون تشكيلهم أشرف، إن راعت الظروف الحقيقية والملازمة للنشأة، " فإذا كان النشء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعًا يثبت في قلبه كما يُثبت النقش في الحجر"[2]، وهذه هي الأخلاق الأساسية التي ينبغي أن تكون لدى الصبيان، والتي تأتي من تعاليم أبويهم والمربين، وذلك حسب طبيعة المسالك التي ألفوها لهم ولقّنوها إياهم، إذ يحصل ذلك بالمداومة والحرص عليها، والغزالي يولي اهتماماً عظيماً في كيفية حصول الصبيان على تعاليم صحيحة في الآداب والمعاملات التي لا تنفصل على سلوك حياتهم، من احترام لكل كبير، وطاعة الوالدين، والمعلمين والمؤدبين لهم، وأن يُنظر إليهم بإجلال وتعظيم، إلى جانب معرفة وجوب امتناعهم عن مخالطة أهل السُّوء والكف عن لغو الكلام وفُحشه.

من هنا يبدو أن الغزالي مقتنعًا بالصوفية المرهونة بالواقعية الشرعية، وهذا ما يُفهم من رسالته (أيها الولد)، حيث يقول" أيُّها الولد ينبغي أن يكون قولك وفعلُك موافقًا للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة"[1]، وينتمي في هذه الصوفية التي يُنتجها طالبوا العلم، يكون بإخلاص ونيّة صادقة يكتنفها فعل المجاهدة والرياضة، وبهذا تكون الأخلاق تبنى على موقف صوفي ينبع من النية التي تتطابق مع الشّرع، وتتوافق معه سلوكًا وعملاً" وأفصح ما يظهر في نظرة الغزالي الناتجة عن أسلوب التربية الخُلُقية، هو التقائه العميق مع أحدث الأنظار الحديثة التي ترى في العمل التربوي المعاناة، وهي خير مدخل إلى التعلم"[2].

يُعد اهتمام الغزالي بالعلم والعمل كأساس أوّلي في بناء الشخصية الكاملة والسّوية التي تريد التربية الإسلامية تحقيقها، والتي يُعتبر الغزالي أحد متبنيها، ومن الداعين إليها، ومن اجل تحقيق ذلك فإنه حدد دور العلم وخاصيته الأساسية والمتمثلة في التخلق، أي بناء السلوك وفق

---

[1]ـ المصدر السابق، ص200.

[2]ـ المصدر نفسه، ص 203.

[1]ـ **أبو حامد الغزالي**، رسالة أيها الولد، تحقيق: توفيق الصباغ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، لبنان، ط2، 1959م، ص 25.

[2]ـ **عبد الله عبد الدايم**، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة إلى القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1973م، ص 237.

هذا النمط الشرعي، والذي ابتغاه ربُّ العالمين لعباده، واهتمام الغزالي بالعلم والعمل، وجعلهما أساس البناء الكيان الفردي والاجتماعي، والمحدد بمنهج قرآني رباني.

1- بيان علامات حسن الخُلُق.

يرى الغزالي أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، لهذا كان أولى للمرء أن يرى عيوبه، ويُبصرها قبل أن يطّلع على عيوب غيره،" حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخُلق هو النفاق"[3]، وتتجلى مظاهر حسن الخلق في أن يشتغل الإنسان بما فقده ويحصل عليه، ويحفظ ما وجده.

والغزالي هنا يتحاكم في هذا الباب إلى القرآن الكريم، إذ أن الله سبحانه وتعالى، ذكر في كتابه صفات المؤمنين والمنافقين، وهي بجملتها ثمرة حُسن الخلق، وسوء الخلق، ففي سورة الأنفال، الآية: 4، يقول:﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً﴾، كما أشار الغزالي إلى بعض الأحاديث التي توحي إلى المعاملة الخلقية الحسنة، منها " أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا"[1].

إن السلوك الأخلاقي يطبعه طريق المعاملات الذي يشمل المسالك التي يمتاز بها الإنسان العفيف الحليم العارف بمقتضى رأفته ورحمته على الناس، فغايته الرضا في الله، وطريقه التعود والرياضة لبلوغ درجة رفيعة والتي تُنال بفعل المجاهدة، قال يوسف بن أسباط" علامة حسن الخُلق عشر خصال: قلة الخلاق، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه"[2]، هذه جملة الأوصاف والعلامات الخلقية التي ينبغي على الإنسان أن يتحلى بها، حتى يستطيع التغلب على طبيعته ويوجهها على أحسن سبيل.

2- الفضائل الأخلاقية عند الغزالي.

للغزالي حديث طويل عن الفضائل الأخلاقية، ولكن سنذكر هنا أمهات الفضائل أهمها؛ والمقصود بها أنه ما من خلق إلاّ وله حدّان؛ أحدهما إفراط والآخر تفريط، وما ينبغي تحصيله واكتسابه هو وسط بينهما، وقد حصر الغزالي الفضائل برغم تعددها في أربعة أنواع" الفضائل وإن كانت كثيرة، فتجمعها أربعة تشمل شعبها وأنواعها هي، الحكمة والشجاعة، العفّة والعدالة، فالحكمة فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفّة فضيلة القوة الشهوانية، والعدالة هي عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب، فيما تتم جميع الأمور"[3].

3- آداب المعلم والمتعلم.

يعني الغزالي عناية خاصة بتهذيب الأولاد وتعليمهم، ويحدد الغزالي آداب المعلمين والمتعلمين مستنيراً بالدين مستهدفاً الآخرة.

أ- آداب المتعلم.

على المتعلم أن يكون طاهر الأخلاق: منصرفاً إلى طلب العلم، لئلا تتوزع فكرته فتقتصر عن إدراك الحقائق، ويجب أ، يكون ملقياً للمعلم زمام أمره مذعناً لنصيحته، متواضعاً له، مكتفيًا بالمذاهب التي يختارها أستاذه راغباً في الإلمام بكثير من فنون العلم

---

[3]ـ **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ص 197.

[1]ـ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[2]ـ المصدر نفسه، ص 200.

[3]ـ **أبو حامد الغزالي**، ميزان العمل، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط1، 1965م، ص264.

لأنها متعاونة، مراعياً الترتيب، وغير خائض في فن قبل أن يستوفي الفن الذي قبله، فإن بعض العلوم طريق إلى بعض، هادفاً إلى تجميل نفسه بالفضيلة إرضاءً لله، مؤثراً علم الآخرة على علم الدنيا إذا عجز عن تخليصهما معًا[1].

ب- آداب المعلم.

يقول الغزالي" المعلم يقتنى كما يقتني المال فله حال طلب واكتساب، وحال تحصيل يُغني عن السؤال، وحال استبصار، وهو التفكير في المحصل والتمتع به، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال: فمن علم وعمل فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماوات كالشمس تضيء لغيرها، وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب"[2]، وعليه أن يحفظ آدابه ووظائفه، وأبرزها: الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ويعني بتطهير نفوسهم من الرذائل وتهذيب أخلاقهم، وألاّ يرى لنفسه منّة عليهم، وأن يمنعهم التصدي لرتبة قبل استحقاقها، وأن يزجرهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض، لأن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويشير الميل إلى كل ممنوع وأن يمتنع عن تقبيح المواد التي يتعلمها سواه، وأن يلقي عقولهم، ولا يذكر لهم أن وراء ذلك ما يدّخره عنهم، وأن يعمل بعلمه ليطمئنوا ٬ليه ويصدقوه، وإلاّ كان وزره عظيمًا، فعلماء السوء أشد خلق الله عذاباً يوم القيامة، وعليه أن يعرف كل نفس من نفوسهم، وميولها وإمكاناتها ويُعالجها وفقًا لطبيعتها.

نلاحظ في هذه الآداب التي أقرّها الغزالي، المراد منها هو الوصول إلى الانسجام الفعلي في العمل التربوي بين مقتضيات المتعلّم والمعلم، وهي أبلغ أشكال الطرق التربوية الناجحة التي تحقق قدراً هائلاً من تحصيل التكوين لدى النشأة في تهذيبها وتوجيهها توجيهاً سليماً حافلاً بالأخلاق والآداب التي تعود بالخير والصلاح على المجتمع، وهي أشرف الغايات المتوخاة من كل تربية.

4- غاية الأخلاق وهدفها.

إن الاهتمام الكبير الذي أظهره الغزالي في ميدان الأخلاق هدفه الأسمى هو بلوغ سعادة الآخرة، التي تكون الدنيا والعمل فيها سبيلاً موصلاً إليها، فعرفت أن النفس إذا كفت عن حب الدنيا، ورسخ فيها حب الله تعالى، فلا يكون شيء أحب إلى الفرد من لقاء الله عز وجل، فالفرد ينشغل دائماً بالتمسّك بالأفعال الفاضلة والسلوكيات الوافية، فالغزالي تنبّه إلى شيء أساسي في تحصيل التربية الأخلاقية، وهو قيام تربية سليمة للنشء منذ الصبا، لأن هذه المرحلة تُعدّ جوهرية في حياة تكوين الصبي لترسيخ صور التهذيب الأخلاقي في نفسه، والتمسك بالفضائل إذا عرفنا أن هذا الهدف موجه نحو غاية أخروية،" أن الدنيا كلها لا أصل لها، إذ لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممرّ، لا دار مقرّ، وأن دار الآخرة مقر لا دار ممرّ، وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكيّس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة، حتى تعظم درجته عند الله تعالى، ويتسع نعيمه في الجنة"[1].

التربية الأخلاقية في هذا الشأن تجعل النشء ينجو من مخالب الدنيا التي قد يغرى بنعيمها، وإذا عرفنا أن غاياتها زمنية مقارنة مع الغايات الأخروية الأبدية، فالأولى؛ فانية، والثانية؛ باقية. فالنتيجة المهمة التي وصل إليها الغزالي في التربية الأخلاقية تتمثل في أن الطفل لما

---

[1] – **أبو حامد الغزالي،** رسالة أيها الولد، مصدر سابق، ص 11-21.

[2] – **أبو حامد الغزالي،** إحياء علوم الدين، ج1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1982م، ص 55.

[1]– **أبو حامد الغزالي،** إحياء علوم الدين، ج3، المصدر السابق، ص 203.

يكبر سيجعل من الأخلاق معيارًا لجميع أعماله سواءً كانت علمية أو اجتماعية أو سياسية، فتجعله يستجيب للشرع وينقاد إلى حكمة العقل، فيستوفي حياته بالعمل والعلم واقترانهما في صورة مشتركة تقوم عليهما الحياة الأخلاقية، وتستمر في جودها، تعاليم الأخلاق مؤثرة إذن في النشء متى كانت مسالكها سوية تجعلهم يستجيبون ويستوعبون مفاهيمها، لكون الأفعال الخيرة طريقها بالرياضة والمجاهدة، وهو أفضل سبيل ممكن يهتدي إليه النشء للتمسك بها حتى تبعد عنهم بذور الفساد، ونبذ الأفعال الرذيلة التي يقبحها الشّرع.

إن النفس تنساق إلى الخير إذا هذبت طبيعتها بالرياضة والمجاهدة، وتسعى في اكتساب الفضائل، وهي بطبيعة الحال تأتي النشء في حصولها، إن "أحسن الطرق التي أقرها الغزالي، في طريقة المعاناة الخلقي، وهو في هذا يلتقي مع أحدث الآراء التربوية، التي ترى أن التربية الأخلاقية لا يكفي فيها تقرير المبادئ الخلقية وتعليمها، بل أحسن وسيلة نتوصل بها إلى التربية الخلقية هي تعويد الطفل على العمل الخلقي ومعاناته له، بحيث يتمرس بالتجربة الخلقية، ومنذ نعومة أظفاره"[2]، فالغزالي كان يرى أن أقوم الطرق لاكتساب الفضائل، إنما هي بالرياضة، وحمل النفس على الأعمال، التي يقتضيها الخُلُق المطلوب، بهذا يمكن أن نقصر في التربية الأخلاقية في حقيقة تكوين النشء إلى حياة الكبر، وإعدادهم وفق تمييز دوافع الخير والشّر، وسيطرة الروح على الجسد، "لا ينبغي أن ننظر اليوم إلى التربية كعملية نقل المعرفة، بل علينا أن نعتبرها عملية تحرير للإنسان، بتكوين شخصيته الأخلاقية، وإتاحة الفرصة لمؤهلاته وطاقاته أن ننطلق من معاقلها، وتمكينه من تحقيق شخصيته، وبلوغ غاياته السامية"[1]، وهذه النظرة التي أعطاها الغزالي للأخلاق راجعة إلى التصوف.

ثالثاً- التربية الدينية.

إن الدوافع التي جعلت الغزالي يهتم بالتربية الدينية ويعطيها أهمية كبرى، هي أحوال عصره المثقلة بظهور الملل والنحل، والاتجاهات الفكرية والعقائد المختلفة، فمنها من نشأ داخل البلاد الإسلامية كعلم الكلام والباطنية، أو من خارجها كالفلسفة اليونانية التي ترجمت إلى العربية، كما اشتهر عصره برغد العيش والثراء الحضاري، هذه الظروف الثقافية والاجتماعية لاشك أن لها انعكاسات واضحة على التربية عموماً، وعلى التربية الدينية خصوصاً، إذ أنها بمثابة تهديد خطير على مقومات الشخصية الإسلامية المتمثلة بصفة خاصة في الدين الإسلامي، فكان على الغزالي أن يُعالج هذه الأخطار، بقيام تربية دينية إسلامية خالصة لصالح النشء، وتكوينهم على أساس القرآن الكريم واتخاذ السنة النبوية كمسلك واف لتعاليم الدّين.

إنّ الحقيقة الأولى التي ركّز عليها الغزّالي في تربية النشء، هي تهذيب العقل بالمعرفة، وتهذيب النفس بالعبادة، ومعرفة الله والتقرب منه، ولا تأتي هذه الأمور إلاّ عن طريق غرس أصول الدين الصحيحة في صدورهم منذ النشأة الأولى، ولهذا نجد الغزالي قد انتهج مسلك الكتاب والسّنة في إثبات صفات الله تعالى سبحانه، وما يعتقده أهل السنة من معاني التوحيد، ومعنى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وحبّ الصحابة رضي الله عنهم.

---

[2]– **محمد لبيب النجيحي**، في الفكر التربوي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، (د.ط)، 1970، ص 91.

[1]– **علي ماضي**، فلسفة في التربية والحرية، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1979م، ص 20.

إذن أول ما يُقدم للصبي في البداية لمعرفة عقيدته هو؛ الشهادتين، وشرحهما له، وكذا توضيح صفات الله تعالى له، أن الله واحد أحد، منزه، حي، قادر على كل شيء، عالم الغيب، ... إلى غير ذلك من الصفات التي تدل على وجوده وعظمته" إنّ حق الله في الطاعات وجب على الخلف بإيجابه على سنة أنبيائه عليهم السلام، لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل، وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به"[2].

بعد عرض الغزالي للكلمة الأولى من الشهادة، يتكلم عن" معنى الكلمة الثانية وهي الشهادة للرسل بالرسالة، وأنه بعث النبي محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن، فنسخ بشريعته الشرائع إلاّ ما قرره منها، وفضّله على سائر الأنبياء وجعله سيّد البشر، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلاّ الله ما لم تُقرن بشهادة الرسول وهو القول: محمد رسول الله، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة"[1]، وهذا هو أهم عماد تُقام عليه التربية الدينية في توكيد حقيقة الشهادتين وجعلها منطلقاً ومدخلاً رئيسيًا لها، لأن المربين المسلمين تكمن وظيفتهم الأولى في توكيد الأفعال والتصرفات التي يقوم بها الطفل، يقول الغزالي في ترجمة العقيدة" ينبغي أن يُقدم إلى الصبي في أول نشوئه، ليحفظه حفظًا ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً؛ فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الإيقان والاعتقاد والتصديق به، فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوئه للإيمان من غير حاجة إلى برهان وحجّة"[2].

فالغزالي عرف أن وجوب قيام التربية الدينية لابد أن تكون في سنّ مبكرة، وهذا لوجود استعداداً كبيراً لدى الطفل لقبول العقائد والتمسك بها دينياً، وذلك بمجرد الإيمان بها، ولا يُطلب عليها دليلاً، أو يرغب في البرهنة عليها، فالطفل في هذه المرحلة غير قادر على الاحتكام إلى سلطة التمييز، وإنما يعتقد ذلك تقليدًا لحُسن ظنه بها، دون أن ننسى الدور الذي يقوم به المعلمين في التوجيه التربوي الديني، وإرشاد الأطفال إلى الاستعانة بالقرآن والسنّة النبوية الشريفة، فالقرآن يُحفظ بالمداومة عليه، أما السنّة مسلك لما تُوجبه الأعمال، ومصرف العبادات، ومختلف الأخلاق التي تحصل في الكبر بالعلم والعمل، فالعلم يحظى تصديقه بالعمل، فهو مؤكد على ضرورة استيعابه وفهمه؛" هكذا نص الغزالي على طريقة معينة لتعاليم الدين، تتلخص في أن تعليم الدين يبدأ بالحفظ والفهم ثم الاعتقاد والتصديق، وهذا يدلُّ على فهم أعمق بحقائق الدين معرفةً ومنهاجًا وسلوكًا"[3].

1- غاية التربية الدينية

تنشأ التربية الدينية في الطفل بقوة الإيمان، حتى يستطيع أن يكون مدافعًا عن عقيدته بترسيخ أفكاره عن حب دينه، وتثبيت شخصيته عليها، يقول الغزالي" ليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخًا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث، وفوائدها، وبما سطع عليه من

---

[2]– **أبو حامد الغزالي،** إحياء علوم الدين، ج1، المصدر السابق، ص 91.

[1]– المصدر السابق، ص 91، 92.

[2]– المصدر نفسه، ص 94.

[3]– **مجموعة من الأساتذة،** أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، (د.ط)، 1962م، ص 805.

أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسماهم وسماعهم وهيئاتهم في الخضوع لله عزّ وجلّ، والخوف منه والاستكانة له، فيكون أول التلقين، كإلقاء البذور في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسّقي والتربية حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء"[1].

أفضل سبيل يُقرّه الإمام الغزالي في قيام التربية الدينية جعل الأطفال يسترشدون بالقرآن والأحاديث وبالصالحين، كمنهج لتحصيل الغايات الدينية التي تهدف إلى نيل رضوان الله تعالى، وتشبّع الأطفال بالروح الدينية، توّلد فيهم روح التكوين الإسلامي السليم، وتجعلهم ميّالين إلى السلوك الخيّر؛ منعطفين نحو تحقيق السعادة الأخروية التي تنال بالعلم والعمل، وهذا بطبيعة الحال يقتضي الإخلاص، والإتيان بالأفعال الصالحة والأخلاق القويمة والتعود عليها، وهكذا حتى تتيسر عليهم طرق النجاح في الحياة الدنيوية والأخروية، إذا ما علمنا أن التربية الدينية تقوم بوظيفة تطهيرية وتكوينية "ولهذا كان الحرص الشديد الذي أظهره الغزالي على اقتران التربية المعتمدة على القرآن والسنّة، مبتغى الشريعة الإسلامية في هذا المسلك لبلوغ الغاية، لتكوين النشء تكوينًا شريفًا في مظهره، وسليمًا في جوهره"[2].

التربية الدينية هي جوهر الحياة الاجتماعية، وهي أساس الحفاظ على توازن الأخلاق، والمجتمع يصلح متى صلحت تربيته، ويفسد متى فسدت تربيته، لهذا فإنه لا سبيل إلى التغاضي أو استبعاد أسس التربية الدينية الصحيحة، سواء كان ذلك سلوكاً، أو معرفةً، أو فعلاً.

إن مقياس التقدم البشري يُنظر إليه بمدى فعالية الطرائق التربوية، وأشرف غايات التربية الدينية، هي تحقيق مبتغى الغاية الأخروية.

خاتمـــــــة:

يُظهر الغزالي في أفكاره المرتبطة بالتربية الأخلاقية والدينية، أنه في غاية الحرص على حفظ تكوين النشء تكوينًا سليمًا يمتاز بأسلوب نوعي في توجيه الحياة الخاصة التي يتمرس وينشأ عليها الأطفال منذ نعومة أظافرهم، والاهتمام المبكر للطرق التربوية، وكيفية تحصيل معالمها، هي أبلغ هدف يتوخاه الغزالي في تعزيز قوام السلوك الأخلاقي والديني معًا، حتى يجعل من الأطفال متمكنين من التكيف مع محيطهم الاجتماعي، لاسيما الدّور الكبير المنحدر من صميم عقيدتهم ودينهم الحنيف، والذي وفقه تتكون شخصيتهم، وتتقوم تصرفاتهم وأفعالهم. وأهم صورة يمكن الوقوف عندها هي مدى فعالية العنصران الديني والأخلاقي اللذان يستوفيان قيام مجتمع فاضل، مبني على أسس سليمة، حافلاً بالآداب والسلوكيات الفاضلة.

الغزالي لم يغفل تبصره إلى هدف تصور أبعاد التربية ومدى فعاليتها، لكونها نواة المجتمع، فالتهذيب النفسي والأخلاقي والديني هو مسعى الغايات المنشودة، إذا عرفنا مقياس الأمم الحضاري، المتمثل في مدى صلاح أجيالها واستجابتهم للتطور الحاصل في مختلف الميادين سواء كانت اقتصادية، اجتماعية أو سياسية، وحتى ثقافية.

إن الانكشاف الحقيقي للتربية الأخلاقية والدينية عند الغزالي، تعود إلى طبيعة نظرته للحياة القائمة على التصوف والمجاهدة، بالفعل هذا التصور يجعل الأطفال يُداومون الاستعانة بما

---

[1]ـ **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين، ج1، المصدر السابق، ص 94.

[2]ـ **عارف مفضي البرجس**، التوجه الإسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، دار الأندلس للنشر، ط1، 1981م، ص 62.

جاء به القرآن، ويتأدبون عن طريق السنّة، فمضمون التربية التي دعا إليها الغزالي هي استجابة لدعوة دينه القويم المؤسس على صيانة الأطفال بالعمل والعلم حتى تحفظ حياتهم ومنه ينالون فضل مولاهم من خلال التعاليم الموجهة إليهم.

تُحفظ المجتمعات ويدوم بقاؤها بدوام صلاح التربية الموجهة لبنائها، وتفسد وتنحل إذا عقمت تربيتهم، ولهذا تُعد التربية في جميع صورها وأساليبها الدينية والأخلاقية أقوم مسلكاً لتوعية المجتمعات والمحافظة على انسجام صفوفها.

قائمة المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

3- **أبو حامد الغزالي**، إحياء علوم الدين، ج3، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

4- **أبو حامد الغزالي**، الأدب في الدين، تحقيق: عبد الله أبو دينة، دار الشرق، بيروت، ط3، 1981م.

5- **أبو حامد الغزالي**، رسالة أيها الولد، تحقيق: توفيق الصباغ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، لبنان، ط2، 1959م.

6- **أبو حامد الغزالي**، ميزان العمل، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، مصر، (د.ط)، 1965م.

7- **زكي مبارك**، الأخلاق عند الغزالي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1968م.

8- **عارف مفضي البرجس**، التوجه الإسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، دار الأندلس للنشر، ط1، 1981م.

9- **عبد الله عبد الدايم**، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة إلى القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1973م.

10- **علي ماضي**، فلسفة في التربية والحرية، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1979م.

11- **لخضر لكحل**، تربية الطفل عند الغزالي ومقارنتها بالتربية عند روسو، رسالة ماجستير في فرع علوم التربية، السنة الجامعية 1989- 1990م.

12- **مجموعة من الأساتذة**، أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، (د.ط)، 1962م.

13- **محمد لبيب النجيحي**، في الفكر التربوي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، (د.ط)، 1970.